

مأساة البيزنطيين

الأب أليعازر عبود

البيزنطية. يقول الأستاذ تروتسكي: كانت نظرية بلسمون بطريك انطاكيا «نظرية المسحة» (هذه النظرية التي تقول بأن ينال الامبراطور كل حقوق السلطة الاكليريكية العليا) لا تكفل للامبراطور البيزنطي نَعَم المعمودية فقط بل تمنحه خدمة تنصيب الأساقفة، وبالتالي يصبح الامبراطور ذا صفة كهنوتية أولى - الحبر الأعظم - يحق له أن يعين ويحاكم البطاركة ويزيل ابرشيات، وكانت نظريته هذه ليست سوى تسلط الملك على الكنيسة(2).

هذه النظرية كانت تسائر ميول الاباطرة وشهواتهم وكان يرجع اليها المشترعون البيزنطيون، واعطوها صبغة شبه عقائدية وعليها استند البطاركة برسائلهم إلى الامراء الروس، فكتب البطريك انطونيوس الرابع إلى الدوق الكبير باسيل ديمتيري افيتش 1393 يقول «الامبراطور القديس يشغل منصباً سامياً في الكنيسة وهو ليس كسائر الامراء...لأنه سيد العالم اجمع». وبعد سقوط الإمبراطورية البيزنطية أصبحت نظريته بلسمون مطبقة في الإمبراطورية الروسية، وكانت المجامع الروسية تعتبر القيصر مسيح الرب(3). إن ما فعله مجمع الشيوخ ليوليوس قيصر بمنحه سلطة إلهية، هو شبيه بما فعلته الإدارة الكنيسة بالامبراطور عندما جعلته سيد العالم، حيث ساهمت في تكوين الدولة بنموذج مونوفيزيقية أوطيخا، أي تمجيد الدولة.

نظرية المسحة إنما اخترعت نتيجة شهوة بلسمون أن ينتقل كبطريك من أنطاكيا إلى القسطنطينية؛ ولكن في النهاية، نقل الامبراطور بطريك اورشليم إليها. كثيرا ما كانت شهوة ذوي النفوذ في التاريخ مقياس للحقيقة، ولم تزل كذلك للأسف. لذلك نفهم فكر بردايف التالي «فقد تم التلاعب بالايمان المسيحي ليخدم مملكة القيصر القائمة وليدافع عن الطبقة الحاكمة والأغنياء والسلطة، وقيل للفقراء والمهمشين أن يقبلوا آلامهم وشقائهم

خطيئة الأرثوذكس اليوم إنهم مازالوا عالقين في حلم استعادة أمجاد بيزنطية القديمة، فمنذ سقوط الإمبراطورية وأمجادها الى اليوم، يكسرهم حلمهم المجنون، لذلك ترى ضعف الإدارات الكنسية بأنهم ينصاعون للدولة وللسلطة أكانت قيصرية أو جمهورية أو غيرها، ولا ينفك الأرثوذكسيون الحالمون أن يستندوا على أية نبوءات لتزكية أمالهم بالعودة للمجد الزائل، مجد الأرثوذكسية العتيق، الذي يروه فقط بالسلطان والمدينة العظيمة، ووجه القيصر الأرثوذكسي هو مقر المجد، وجغرافية القيصر هي الملكوت المفقود. أيا كان هذا القيصر حتى ولو كان مسخاً.

لكن هل يعلم الحالمون بالمجد الزائل، أنهم إنما يجعلون من موت المسيح على الصليب مجرد تحول ملك روما من الوثنية الى المسيحية، ونقل السلطة من يد كهان لكهان، ومن يد القيصر الوثني الذي نصب نفسه إلهاً إلى يد القيصر الذي نصبه الإله كما عبّر أحد المفكرين، فهناك يبخر الكهان قبل الحرب وهنا يكرس الكهان السلاح، من دبّابات وطائرات، بماء مقدس.

إذا أردنا أن نقارن بين العهدين للإمبراطورية العهد الوثني والعهد المسيحي، وعدنا بالتاريخ إلى ما قبل السيد ، فنرى أن الامبراطور في بادئ الامر رُفِع إلى مرتبة الآلهة، ففي أفسس بُني معبد يحمل هذه الكتابة: «إلى آلهة رومة وإلى يوليوس الإلهي»، ومع تبدل الجمهوريّة إلى إمبراطورية صار للسلطة الحكوميّة طابعٌ إلهي، والامبراطور لا يطلب عبادة مطلقة بل مجرد اعتراف شامل من الجميع بسلطته الإلهية مع كل ما يرافق هذا الأمر من تعسّف ديني وخضوع(1)، ومن هنا جاء مصطلح «الحبر الأعظم».

أنّ الامبراطور كان ذا صفة كهنوتية واسعة أيام الدولة

الرب يسوع، وصارح البطريك بقوله «لا يجب ان تتحول إلى خادم للهيكل عند بوتين».

هل دفعت المسيحية ثمننا باهظا وبذلت دما وحاربت ضد عبادة الامبراطور لكي لا تأكل من خبزه، لكي تعود اليوم لتترجى خبز مائدة القيصر الأرثوذكسي؟ هذا القيصر الموعود لن يحرر العبيد انما يتيح لهم عبودية فخمة لأنه على دينهم (نحن عبيد ملك من قبيلتنا) ولن يفك قيودهم إنما يجمّلها باسم المسيح. إن المطالبة بقيصر هي مطالبة بسطوة القبيلة، وهي تعني أننا لم نصبح أحراراً بعد. يقول البطريك اغناطيوس الحكيم (الرابع هزيم): أجسر أن أقول إننا في كثير من الأحيان ننجرف في العالم ونخون ربنا ونجعل من سواه ربا لنا، المسيحية ليست جيشا ولا سلاحا وليست أمجادا كما يفهمها الناس(6).

علينا ان نقتل اليوم فكرة القيصر الأرثوذكسي وأن يذهب كل أثر ورجاء بعودة المجد الأرضي وأن نعتزف إننا أخطأنا لوجه يسوع عندما كان الامبراطور وكيلا الهيا، لكي يعود الارثوذكسيون إلى حب يسوع العريس المصلوب ويثشرون باسمه، لكي نعود إلى البرية الأولى، ارثوذكسيون همهم الأوحد بناء وطن شريعته رفع الانسان، لا بناء مملكة تفرض «شرع الله»، يجب أن يتحرر الأساقفة فيها من سطوة المجد العالمي، من التاج والعكاز والساكوس الامبراطوري، من ثوب الملك ومن عرشه، يجب أن نكف عن البحث عن جغرافية الامبراطور. ليس هذا وحسب بل يجب أن يزال اسم الامبراطور إلى الابد ونعلن أن كل انسان مسيحي تعمد يصير هو مسيحا للرب، لا بل أكثر يجب أن نعتذر من كل الشعوب التي استبعدوا باسم الامبراطور الأرثوذكسي، يقول البطريك هزيم «لقد تغيير التاريخ ولم تعد بيزنطة موجودة وعلينا ان نكون واقعيين لئلا نعزل من الوجود» (7).

فهو نصيهم في الحياة، وأن يخطعوا بوداعة لكل شر اجتماعي... منذ زمن الامبراطور قسطنطين لم تتخطى مملكة قيصر كما كان يفترض بالكنيسة أن تفعل، لقد أخفقت الكنيسة في واجبها وتعهدتها(4).

هذا من ناحية ومن ناحية اخرى كان القياصرة يرون في الكنيسة يداً جديدة يسيطون سلطانهم من خلالها، فالامبراطور البيزنطي الذي لم يستطيع ان يسيطر نفوذه على الإمبراطورية الروسية بجيشه، بسطها من خلال الإدارة الكنيسية عندما طلب البطريك انطونيوس الرابع من الامير الروسي ان يعترف بسيادة الامبراطور البيزنطي كونه «سيد العالم»؛ وهو ما نراه اليوم في افريقيا، فروسيا التي لم تستطع بسط نفوذها سياسيا في افريقيا تبسطه من خلال الإدارة الكنسية، بحيث يصير للكنيسة الروسية أبرشيات فيها ويصير للدولة من خلالها موطن قدم.

إن الضرر الذي الحقته الإدارة الكنسية بالكنيسة بسبب محاولاتها التوفيق بين الدولة والكنيسة يفوق بكثير ما استفادت منه من ارتباطها بها، فقد صار ازدهار الكنيسة مرتبطاً ارتباطاً تاماً ببقاء الحكام واستقامتهم اليمانية، فإن استقاموا استقامت معهم الكنيسة وإن هرطقوا تبلبلت فيقول المؤرخ أسد رستم: «وما الانشقاق العظيم الذي شطر الكنيسة الجامعة في القرن الحادي عشر شطرين الا نتيجة محتمة لتدخل الدولة في شؤون الكنيسة وربط السياسة الدينية بالسياسة السياسية»(5) وفي روسيا كان بطرس الأكبر متأثراً بالفكر البروتستانتي وكانت الكنيسة خاضعة له.

ونرى في اجتياح روسيا لأوكرانيا مثال جديد معاصر؛ وخلال لقاء البابا فرنسيس مع البطريك كيريل في 15 آذار الحالي على منصة زوم الذي استمر مدة 40 دقيقة، قضى البطريك كيريل عشرين دقيقة منها ليبرر الحرب على أوكرانيا، فقال البابا لمحاوره نحن لسنا خادمين لدولة ينبغي ألا نستخدم لغة السياسة انما لغة

- ٢- جورج خضر/س. ترويتسكي، الكنيسة والدولة، سلسلة تعرف إلى كنيسة كنيستك جزء 3، منشورات النور، 1982، ص 23.
- ٣- المرجع السابق. ص 24.
- ٤- لاهوت التحرير الأرثوذكسي (النموذج الروسي)، الأب سامي حلاق اليسوعي، دراسات لاهوتية، دار المشرق، لبنان، بيروت، طبعة أولى 2017
- ٥- الدكتور اسد رستم، تاريخ مدينة الله أنطاكية العظمى، الجزء الأول، منشورات المكتبة البولسية، طبعة 1988، ص 109.
- ٦- اغناطيوس الرابع، بطريك انطاكية وسائر المشرق، نفحات انطاكية، صفحة 367. 7. اغناطيوس الرابع، بطريك انطاكية وسائر المشرق، نفحات انطاكية، صفحة 212.

ويبقى السؤال العالق هل تستطيع الادارات الكنسية اليوم الخوض في غمار تحرير الكنيسة من مجد الامبراطور وسطوته و«تبيكون»(*) الامبراطور، التي انتقلت بطريقة ما إلى الأساقفة فصاروا هم القيصر جديد ومنهم الحبر الأعظم، هل تستطيع الكنيسة التخلي عن فكرة انها وريثة الإمبراطورية البيزنطية، هل تقبل خلع مجد الامبراطور والعودة إلى صورة العريس يسوع؟

*. تبيكون: هو الكتاب الذي يتضمّن تنظيم الخدمات والصلوات والقراءات

المراجع:

- ١- الارشمندرت إيليا طعمه، دراسات كتابية في سفر الرؤيا، سلسلة دراسات في الكتاب المقدس، در المشرق، ص 27.